

هنا؛ وينقطع صبيح الحياة

وبعد: أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، فهي النجاة من ناره وعذابه، كما
أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾
ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿٧٢﴾ [مزيم: ٧١-٧٢].

أيها الناس؛ إن من لطف الله ورحمته بعباده، أن جعل يئوتا له على أرضه،
يقتصدها الناس ويفيئون إليها. جعلها منارات للهدى والنور، فيها يعبد سبحانه
ويذكر: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ
الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

أرادها بقاعاً ينقطع فيها صبيح الحياة وصخبها، فيجد العبد فيها نفسه التي
افتقدتها في زخرف الحياة واغوائها.
أرادها بقاعاً تعرج فيها الأرواح وتخلق في ملكوت الله، فيتعالى فيها العبد
بذلك عن جانبه المادي الذي أثقله وأغياه.
أرادها بقاعاً يقتصدها العبد في يومه وليلته خمس مرات، حتى يتخلص من
أذرائه وخطاياها التي سودت قلبه وحياته، فتبيض بذلك صحائفه وتطهر، كما
يُطَهَّرُ بِالمَاءِ بَدَنَهُ وَتَوْبَهُ.

قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله
عنه: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلَّ

يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا).

أَرَادَهَا بَقَاعًا يَلُودُ بِهَا الْمَهْمُومُ وَالْمَغْمُومُ، فَيَنْطَرِحُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ دَاعِيًا وَمُسْتَجِيرًا وَشَاكِيًا، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

كَمْ هُوَ بَائِسٌ مَنْ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ قَصَدَ بَيْتَ الْخَلْقِ، وَتَرَكَ بَيْتَ مَنْ بِيَدِهِ الْأَمْرُ، الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَهِيَ الْبَيْتُ الَّتِي تُرْفَعُ فِيهَا الْحَاجَاتُ بِلَا خِطَابَاتٍ وَلَا شَفَاعَاتٍ، وَلَا يُوجَدُ عَلَى أَبْوَابِهَا حُجَابٌ وَلَا حِرَاسَاتٌ.

جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَرْوِيهِ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ الرَّسُولُ الْمَسْجِدَ، فَوَجَدَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ صَلَاةٍ؟ قَالَ: هُمُومٌ لَزِمْتَنِي وَدُيُونٌ أَثْقَلْتَنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَلَا أَعْلَمُكَ كَلَامًا إِذَا قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ غَمَّكَ وَقَضَى دَيْنَكَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَعَلَبَةِ الدِّينِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ. قَالَ: فَفَعَلْتُ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ هَمِّي وَقَضَى دَيْنِي". [أبوداود]

فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الصَّحَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عِنْدَمَا أَحَاطَتْ بِهِ الْهُمُومُ وَالْحَاجَاتُ، قَصَدَ بَيْتَ رَبِّهِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا فِي تَفْرِيجِ هَمِّهِ وَقَضَاءِ دَيْنِهِ.

أَرَادَهَا بِقَاعٍ تَدُوبُ فِيهَا الْفَوَارِقُ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ غَنِيِّ وَفَقِيرٍ، أَوْ رَيْسٍ
وَمَرْؤُوسٍ، أَوْ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ، أَوْ أَيٍّ مِنَ الْمَعَايِرِ الَّتِي نَبَتَكَرُّهَا لِتَتَعَالَى بَعْضُنَا
عَلَى بَعْضٍ.

تُعَلِّمُنَا هَذِهِ الْبِقَاعُ الْمُبَارَكَةُ أَنَّنَا سَوَاسِيَةٌ، تَمَامًا كَوُقُوفِنَا فِي الصِّفِّ، فَلَا تُوجَدُ
صُفُوفٌ لِفِئَةٍ دُونَ أُخْرَى، وَعِنْدَمَا يَقُولُ الْإِمَامُ: «اسْتَوْوَا» فَإِنَّهُ يُذَكِّرُنَا بِهَذِهِ
الْقِيَمَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَكَمَا تُعَلِّمُنَا هَذِهِ الْبِقَاعُ الْمُسَاوَاةَ، فَإِنَّهَا تُعَلِّمُنَا أَيْضًا أَنَّ التَّفَاوُتَ إِنَّمَا يَكُونُ
بِالْعَمَلِ وَالسَّبْقِ، فَمَنْ بَكَرَ فَقَدْ حَظِيَ بِالصِّفِّ الْأَوَّلِ وَتَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَقَبْلَ
ذَلِكَ بِالرِّبَاطِ وَاسْتِغْفَارِ الْمَلَائِكَةِ بِالنَّظَارِ الصَّلَاةِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، كَمْ هُمْ بَائِسُونَ مَنْ يَزُورُونَ بُيُوتَ اللَّهِ، وَلَا يُعَظِّمُونَهَا كَمَا عَظَّمَهَا
اللَّهُ، فَلَا يَهْتَمُّونَ بِطَهَارَتِهَا وَنَظَافَتِهَا وَكَافَّةِ مَرَافِقِهَا، وَلَا يَكْفُونُ أَذَاهُمْ عَنِ
الْمُصَلِّينَ، وَتَكْثُرُ خِلَافَتُهُمْ وَنِزَاعَاتُهُمْ، وَتَرْتَفِعُ أَصْوَاتُهُمْ بِمَا يُنَاقِضُ رُوحَ الْمَكَانِ
وَقُدْسِيَّتَهُ، الَّذِي لَا يَصِحُّ فِيهِ إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ وَتَعْظِيمُهُ.

وَكَمْ هُمْ بَائِسُونَ مَنْ هَجَرُوا بَيْتَ اللَّهِ، وَكَمْ هُمْ غَارِقُونَ فِي ضَجِيجِ الْحَيَاةِ وَقَلَقِهَا
بِلا هُدُوءٍ وَطَمَإْنِينَةٍ، وَفِي الِهُمُومِ وَالْغُمُومِ بِلا مَلَاذٍ وَمَأْوَى، وَفِي الذُّنُوبِ
وَالْإِثَامِ بِلا مَغْفِرَةٍ وَمَحْوٍ.

إِنَّ الْهَاجِرِينَ لِبُيُوتِ اللَّهِ هُمْ الْمَشْرَدُونَ حَقًّا، وَلَوْ آوَتْهُمْ قُصُورُ الدُّنْيَا، وَهُمْ
الْغُرَبَاءُ وَلَوْ آوَتْهُمْ أَوْطَانُهُمْ، وَهُمْ التَّائِهُونَ وَلَوْ طَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ.

اللَّهُمَّ آوِنَا إِلَيْكَ، وَاجْعَلْنَا مِنْ قُصَادِ بُيُوتِكَ، وَلَا تُخَيِّبْ لَنَا ظَنًّا وَلَا رَجَاءً.
أَقُولُ قَوْلِي هَذَا، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرُوهُ، إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الْحُطْبَةُ الثَّانِيَّةُ:

وَبَعْدُ،
أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، إِنَّ مَكَانَةَ الْمَسْجِدِ فِي تَارِيخِنَا الْإِسْلَامِيِّ عَظِيمَةٌ جِدًّا، فَهُوَ اللَّبِنَةُ
الْأُولَى فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، بَنَاهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوْرَ وُضُوءِهِ الْمَدِينَةَ، ثُمَّ
شَيَّدَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَيْهِ، فَفِيهِ يُصَلُّونَ، وَيَتَحَدَّثُونَ، وَيَتَعَلَّمُونَ، وَيَتَشَاوَرُونَ،
وَيَقْرُرُونَ.

فِي الْمَسْجِدِ عُقِدَتِ الْأَلْوِيَّةُ الَّتِي فَتَحَتْ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَدَخَلَ
النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.
وَفِي الْمَسْجِدِ عُقِدَتِ حَلَقَاتُ الْعِلْمِ فِي كَافَّةِ الْعُلُومِ وَالتَّخَصُّصَاتِ، فَاشْرَقَ نُورُ
الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

وَكَانَ الْمَسْجِدَ هُوَ قَلْبُ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ، الَّذِي يُمَدُّ كُلُّ أَجْزَائِهِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ
وَالْعِلْمِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ بِالْحَيَاةِ وَالنُّورِ.

إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَعُودَ لِلْمَسْجِدِ حَتَّى يَعُودَ دَوْرُهُ فِينَا، لَا نُرِيدُ عِلَاقَةً بِالْمَسْجِدِ
بَاهِتَةً، نُؤَدِّي فِيهِ الصَّلَوَاتِ ثُمَّ نَمْضِي، بَلْ نُرِيدُ أَنْ يَمْتَدَّ أَثْرُهُ فِينَا، أَنْ يَكُونَ

جُدُورُنَا، وَنَحْنُ أَعْصَانُهُ وَفُرُوعُهُ الَّتِي مَهْمَا امْتَدَّتْ وَبَعُدَتْ إِلَّا أَنَّهَا مَشْدُودَةٌ
إِلَى أَصْلِهَا تَسْتَمِدُّ مِنْهُ حَيَاتَهَا.

نُرِيدُ أَنْ نَعِيشَ الْقِيَمَ الَّتِي تَعَلَّمْنَاهَا فِي الْمَسْجِدِ فِي حَيَاتِنَا، فَتَرْجِعُ إِلَى الْمُجْتَمَعِ
بِقُلُوبٍ مَلَأَهَا الْحُبُّ فَلَا بَغْضَاءَ وَلَا أَحْقَادَ، وَمَلَأَتْهَا الرَّحْمَةُ فَلَا قَسْوَةَ وَلَا
جَفَاءَ، وَمَلَأَتْهَا التَّقْوَى فَلَا جَرَأَةَ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَمَحَارِمِهِ، وَمَلَأَهَا حُبُّ
الْإِتْقَانِ وَالنِّظَامِ وَالْإِنْضِبَاطِ فَلَا تَفْرِيطَ فِي الْأَعْمَالِ وَالْوَطَائِفِ.

إِنَّ مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْحَيِّ، أَنْ يَشُدَّ الْمَسْجِدَ عِلَاقَتَهُمْ بِبَعْضِهِمْ وَيُحْكِمَهَا،
فَيَتَذَكَّرُونَ إِذَا نَسُوا، وَيَتَزَاوَرُونَ إِذَا مَرَضُوا، وَيُسَاعِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا
اِحْتَأَجُّوا.

أَمَّا إِذَا انْعَدَمَ تَأْثِيرُ الْمَسْجِدِ فِي عِلَاقَتِنَا بِبَعْضِنَا، وَفِي أَخْلَاقِنَا وَسُلُوكِنَا، وَفِي
عِلَاقَتِنَا بِرَبِّنَا، وَفِي نَفْعِ أَنْفُسِنَا وَبِلَادِنَا، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عِلَاقَتِنَا بِالْمَسْجِدِ
وَزِيَارَتِنَا لَهُ لَا تَخْتَلِفُ عَنْ زِيَارَتِنَا لِمُنْحَفٍ أَوْ مُنْتَزِعٍ أَوْ مَا شَابَهُ، عِلَاقَةٌ رُوتِيئِيَّةٌ
مَيْتَةٌ لَا حَيَاةَ فِيهَا وَلَا رُوحَ.